عون الوطني، عون الطائفي

الحياة ٥/١٢/٨٩

غسان سلامة *

■ يتساءل المرء وهو يرى عشرات الألوف من المتظاهرين الزاحفين الى بعبدا تاييداً للجنرال عون، هل تغيّرت السياسة اللبنانية لهذا الحد؟ هل سقطت السياسة التقليدية من دون رجعة، وهل دخلت «الجماهير» في لبنان باب العمل السياسي، وهي التي أنفت عن دخوله عقوداً بينما «الجماهير» تدعّي صنع التاريخ من بغداد الى القاهرة، ومن دمشق الى الجزائر؟ بكلام آخر، هل خرج العمل السياسي من أيدي نخبة مغلقة على ذاتها من السياسيين المحترفين، العائشين من السياسة ولها، ليصبح ملكاً لتلك الموجات البشرية الملأى حماسا؟

للاجابة، ينبغي أولاً التساؤل عمّا يحرّك تلك الجماهير. والواقع ان شعاراتها وطنية، وتعبئتها طائفية. فمن هم المتظاهرون المندفعون الى بعبدا المقتنعون فعلاً بالعيش المشترك، وبالتفاهم والتسويات اساساً للخروج من الحرب؟ كم من الأفراد بينهم تحركهم رغبة معلنة في «تحرير لبنان من الاحتلال السوري» كما يقولون، وكم من بينهم تحركهم رغبة دفينة في التعبير المتجدد عن رفض الآخر، الآخر المحلي، والآخر العربي؟ لست أدري ولا أحد يدري فعلاً ما الذي يحرّك فعلاً كل هؤلاء المتظاهرين. ويقيني أنهم أنفسهم، على صدقهم، وعلى حسهم المرهف بانه ينبغي عليهم ان يكونوا حيث هم على تلك الطريق المتعرجة الصاعدة نحو القصر الجمهوري، وعلى ايمانهم غير المشكوك فيه بان ما يقومون به هو لمصلحة لبنان، انهم لا يعرفون ما يحركهم فعلاً، وربما هم لا يتساءلون فعلاً عن حقيقة دوافعهم لأن الوقت ليس زمن تساؤل، ولأن التساؤل باب للتردد، والتردد سبب للرضوخ والسكون والعزلة بينما «الوطن في خطر» والاقتحام العسكري (والمجازر الممكنة) على الابواب.

المشاعر صادقة اذن، وفيها الكثير من العفوية، ولكنها مشاعر مختلطة تتراوح بين العصبية الطائفية القديمة، والخطاب الوطني المتجدد. وربما ان التظاهرات الشعبية ليست أمراً مألوفاً في لبنان، وفي القطاع الشرقي من العاصمة بالذات، حيث ترعرعت اخلاقية بورجوازية متمكنة، عصيّة في الغالب، على التعبئة الجماهيرية. ولكن الأمور تغيّرت، في شرق العاصمة كما في غربها، والفئات الاجتماعية المتظاهرة اليوم، ليست تلك الطبقات المتوسطة الساعية للتسلق على السلم الاجتماعي من خلال النجاحات الفردية. انها فئات أخرى، بعضها معدم فعلاً، وبعضها الآخر ينتمي الى طبقة متوسطة لم تعد الأزمة الاقتصادية الخانقة في لبنان، والمستمرة منذ خمس او ست سنوات، لتسمح لها بالحلم في النجاحات الفردية، من خلال شهادة جامعية، او دكان لافتته باللغة الاجنبية. انها، على الاجمال، وعلى الرغم من وجود بعض الرموز الفردية للبورجوازية المسيحية اللبنانية القديمة، فئات متوسطة ترى مداخيلها تتضاءل واحلامها الاقتصادية تتزعزع، وموقعها الجماعي على خريطة لبنان السياسية يتاكل، على الأقل منذ تاكد فشل مشروع اعادة بناء الدولة على يد أمين الجميل سنة ١٩٨٤.

ولكن هذه التظاهرات ليست جديدة بالفعل. فلبنان شهد في السابق، ومنذ بدء الحرب، هذا النوع من التظاهرات، وكان الغالب فيها هذا الامتزاج المقلق الدائم بين الوطني والطائفي. وكانه ليس من سياسة محرّكة للجماهير الشعبية في لبنان ان لم يكن عصبها الحقيقي طائفي. فالتظاهرات التي تسعى الى تجاوز الطائفية، تلك التي ينظمها افراد عصريون على خطوط التماس، وفي سبيل وحدة لبنان، ومن أجل المعاقين، ولمحو الطائفية عن بطاقة الهوية... هذه تظاهرات جميلة ومفيدة وعصرية، ينظمها افراد مقتنعون بما يفعلون، ولكنها تبحث عبثاً عن امتداد جماهيري لها، وكان «الجماهير» اللبنانية غير موجودة فعلاً الا من داخل النسق الطائفي، ووفق معطياته.

فالتظاهرات الهائلة التي ذهبت عام ١٩٥٨ لتحيي جمال عبدالناصر في دمشق، كانت ولا شك وطنية وقومية وعروبية في خطابها، ولكنها كانت مشحونة بالتعبئة الطائفية بل والمذهبية الفاقعة. والتظاهرة الشعبية التي كانت ترافق سنوياً عيد حزب الكتائب، كانت تتميز باستمرار عن عيد الاستقلال الوطني الذي يسبقها بايام، بانها شعبية صاخبة، وخطابية نافرة، وتعبوية بينما عيد الاستقلال رتيب كئيب، وكان الوطنية اللبنانية يتيمة ليس لها سوى بعض السياسيين المرتدين بذلات افرنجية يتبادلون ببرود وابتعاد، كؤوس الشمبانيا، احتفاء بكونهم حيث هم.

وعندما بدأت الحرب، رأينا الطائفي يبرز بوضوح أكبر. لم تكن الوطنية غائبة تماماً عن العرس الجماهيري الذي رافق ماتم كمال عدوان، وابو يوسف النجار وكمال ناصر، ولا كان التضامن مع الفلسطينيين حكراً على فئة لبنانية دون أخرى، ولكن التظاهرة بدت استثنائية فعلاً عندما اندلعت الحرب اللبنانية - الفلسطينية دموية بعد الماتم بايام. أما انزال الالوف من الطلاب من مدارسهم الى شوارع الاشرفية على يد حزب الكتائب تحت شعار «الدفاع عن الجيش»، فلم يكن مؤامرة على وحدة لبنان كما قال اليسار آنذاك، ولم يكن دفاعاً عن الجيش كما قال منظمو التظاهرة، بل عشّش في ذلك المجال الوسطي، حيث يلتقي الوطن بالطائفة، ويتماهيان بل يمتزجان بصورة تدفع في الحين معاً على لحظ الشعور الوطني والاعجاب به، وعلى النفور من التعبئة الطائفية المختبئة وراء هوية المنظمين وهوية المتظاهرين وهوية الشوارع التي تسلكها التظاهرة وهوية المعلقين الذين يكتبون عنها في اليوم التالي، ذمّاً او اشادة.

ثم حصل الغزو الاسرائيلي الواسع، وبدأ الاحتلال وقامت المقاومة اللبنانية تدكّ مواقعه من مقاهي الحمراء حتى بنايات مدينة صور. ووقف اللبنانيون حائرين امام ظاهرة المقاومة. واني لأذكر بوضوح حدة النقاشات الجارية آنذاك. فمن بيننا من كان يجزم ان هذه المقاومة تهدف بالأساس الى قيام تيار طائفي شيعي الهوية، بالنظر الى المعارك الحاصلة قبل الغزو بين حركة «أمل» والمنظمات الفلسطينية، وبالنظر الى حرص الشيعة على اختلاف مواقعهم، على تبني المقاومة الجنوبية تبنياً شبه حصري وكانها مقاومتهم دون غيرهم من اللبنانيين، وقضيتهم الذاتية. وبدا آنذاك احياناً ان المقاومين يهجمون ببسالة كبيرة لا على اسرائيل لأنها اسرائيل بل لأنها ذلك الآخر الخارجي (كغيرها ممن سبقها من الآخرين الخارجيين) الذي يحاول السيطرة على جبل عامل. من هنا ذلك الامتعاض الهائل من زيارة امين الجميل المفاجئة الى صيدا بعد خروج الجيش الاسرائيلي منها. وبدت الزيارة لبعض محدّثينا وكانها مشاركة غير شرعية في الارباح، وكأنها (نعم!) تجاوز غير مقبول للحدود الفاصلة بين الطوائف. وحدهم ابناء جبل عامل كانوا يقبلون بالتجمع بعشرات الألوف في ساحات صور للاحتفال بتحرر «مناطقهم». وهكذا اختلط الوطني بالطائفي في واحدة من أهم الممارسات السياسية المعاصرة في لبنان، الا وهي مقاومة المحتل الاسرائيلي، بل تضاءل وقع العنصر الوطني في التعبئة تدريجاً، وتحوّلت اساساً (او ربما هي كذلك من الأساس) الى جزء من مشروع فئوي.

ليست التظاهرات الى بعبدا اذن بالمفاجئة، ويجب ألا يفاجئنا ذاك التناقض الصارخ في النظر اليها. فالقائمون بها، والمستفيدون منها، يصفونها بالوطنية. والرئيس الحص، في الجانب الآخر، وبعقلانيته المعروفة عنه، حسّاس للتعبئة الطائفية التي تقوم التظاهرات عليها. ويقيني ان الحقيقة ملك الطرفين معاً، ففي هذه التظاهرات مزيج، عوّدتنا عليه السياسة اللبنانية، بين الوطني والطائفي. اذ هناك طبقات مترسبة ومتداخلة من الصدق والعفوية، تجعل الفصل بينهما امراً متعذراً، فترى الطائفي حيث تسعى للوطني، وتكتشف الوطنية حيث تتمترس الطوائف.

وهكذا يبقى لبنان أسير مزيج كان في الأساس سبب وجوده. والعلة ليست في وجود الطوائف ولا في تعايشها، مهما قال العصريون المتمدنون العلمانيون. العلة طبعاً هي في تنطّح القيّمين على الطوائف لادعاء تمثيل الوطن. العلة هي في ذلك التماهي الذي عوّدنا عليه البعض بين مطامح الطائفة الحقيقية ومطامح الوطن المزعومة. ولكن هذا ليس أمراً مفاجئاً: أولم يعلمنا كبار فلاسفة السياسة المعاصرون ان الوطنية نوع من الروح القبلية، العشائرية، الممتدة جغرافياً؟

يبقى الراهن من الامور، وليس المجال هذا معالجته. بل يكفي استذكار هذا المزيج المقلق. وان نحن قلنا به لوجب علينا، في الامور الراهنة، رفض مزدوج: رفض لما نسمعه عن اعتبار «ظاهرة عون»، كامر شخصي يتناول ضابطاً متمرداً، ورفض التماهي الضمني بين الطائفة والوطن، وبين خمس مساحة لبنان ومجموعها، وهو تماه ثقيل الحل وعقيم... لانه يحمل في ثناياه نوعاً من الاحتكار المتجدد للوطن.

وان كانت طقوس بارك اوتيل شتورا، باشخاصها، ومكانها، وطريقة حصولها، وما نتج عنها من ترقيات سياسية وتعيينات مختلفة... ان كانت هذه الطقوس كلها لا تثير حماس أحد، وعن حق، فان الحماس المتدفق حول قصر بعبدا يثير القلق من دوافعها الفعلية، ونتائجها النهائية. لذا فالأصوات الراشدة، المصرّة على بناء دولة وعلى تسليمها لذوي الأمانة والاخلاص، والأصوات الداعية، في الآن معاً، للوحدة وللاستقلال وللاصلاح، والأصوات غير المقتنعة بذلك التسرّع المشبوه في بلدة بقاعية، ولا بذلك الحماس المشوب بالف علّة في شرق بيروت... هذه الأصوات ستخفت، ويتضاءل وقعها... فالأزمنة ليست أزمنة الصفاء في الوطنية، ولا الامانة في السياسة. انها أزمنة الخوف والكابة.

---

* استاذ العلوم السياسية في جامعة باريس الاولى.